بمثابة تقديم

بقلم السيد محمد علي ابطحي

التديّن ومتطلّباته، في عالمنا المعاصر، إشكالية تشغل حيّزا واسعا في الخطاب المعاصر للمجتمعات الإسلامية، سواء في أوساط النخب أو في أوساط العامّة، وعلى أصعدة ثلاثة يعكسها هذا الكتاب الذي يجسّد نمط تعامل مؤلّفه مع هذا الموضوع الحسّاس.

فعلى الصعيد الفرديّ، تتلخّص الإشكالية في كيفية الجمع بين التديّن من جهة، ومتطلّبات الفكر والحياة المعاصرين من جهة أخرى، أي كيف يمكن للفرد، في المجتمع المعاصر، أن يظلّ محتفظًا بهويته الدينية والتزامه العملي بتعاليم دينه.

وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن الإشكالية الّتي تستأثر باهتمام الجميع، فكريّا وعمليّا، هي في كيفية إقامة مجتمع ديني يتمتّع، في الوقت نفسه، بالحرية والعدالة والرفاهية والتطوّر، حسب التعابير المعاصرة لهذه المفاهيم.

أمّا على الصعيد الحضاري، فالإشكالية تكمن في هذا التساؤل: هل إن التاريخ انتهى؟ وهل يمكن القول إن مصير البشرية هو الحضارة

الغربية فقط، أم إن هناك مستقبلاً آخر للبشر خارج ميدان هذه الحضارة؟ إن البحث في هذا الموضوع ينطلق من بدايات متباينة ليصل، عادة إلى نتائج متباينة أيضا.

وفي المجتمعات الإسلامية، تحظى مناقشة هذه الإشكالية، على الأصعدة الثلاثة، بأهميّة غير عادية: كون الفكر الإسلامي المعاصر، بغالبية تياراته، يقدّم تفسيرا للإسلام مبنيا على أساس حضور الدين في جميع مراحل الحياة وتفاصيلها، على الصعيدين الفردي والاجتماعي، ومنذ مرحلة ما قبل الولادة، وحتى مرحلة ما بعد الموت. وعلى أساس هذا التفسير، فإن الشريعة، (القواعد العملية للسلوك الديني)، تتّخذ لدى غالبية المناهج الإسلامية حجما ضخما، وتحتلّ موقعا رفيعا لا بديل عنه، باعتبار أن هذه الشريعة تتكفّل بوضع جميع «الحقوق» و«الواجبات» الفردية والاجتماعية. إضافة إلى ذلك، فإن أيا من المجتمعات الإسلامية لم يتفاعل بشكل كامل مع دعوات «الإصلاح الديني» (Reformation) و«العلمانية» (Secularisation)، وهو أمر ناتج عن الحضور الواسع للشريعة الإسلامية في فكر المسلمين وحياتهم.

* * *

في هذا الكتاب، يبحث السيّد محمّد خاتمي هذه الإشكالية على أصعدتها الثلاثة، كما فعل في كتابه الأول المنشور باللغة العربية بيم موج، إلاّ أننا نلاحظ في ثنايا المعالجات التي يجمعها هذا الكتاب تركيزا على الموضوع الحضاري وكأن المؤلف يرمي إلى تبيان أن التديّن

والحداثة على الصعيد الفردي، وإقامة مجتمع ديني متطوّر على الصعيد الاجتماعي، يتوقّفان على رفض نظرية «أحادية خيار الحضارة الغربية»، بل إنه يختصر تحقيق الأمرين، برفض هذه النظرية.

وإذ يرى السيّد محمّد خاتمي أنه يخوض في موضوعات معقّدة وشائكة ذات بعد تاريخي، تبدو معه الحاجة مُلحّة لاعتماد معالجات تاريخية اجتماعية في آن واحد. كذلك فهو لا يبادر إلى تقديم إجابات عما يطرحه من أسئلة، بل يعتقد، على سُنّة حكماء المسلمين، بأن طرح السؤال الصحيح، والطرح الصحيح للسؤال، إنّما يشكّلان الخطوة الأهمّ باتّجاه حلّ الإشكاليات بالطريقة المناسبة. ومع ذلك فهو يرى، انطلاقا من تجارب المسلمين التاريخية في ميادين الفكر والحياة المختلفة، عَجْزَ فريقين عن تقديم الأجوبة المناسبة عن الأسئلة المطروحة. وهذان الفريقان هما فريق العلمانيين، وفريق المسلمين المتحجّرين، مُشدِّدا على الضعف المطلق للفريق الثاني في دفاعه عن حُرمة الإسلام.

وما يُعزّز من أهمّية ما يطرحه السيّد محمّد خاتمي في هذا الكتاب، هو أنه أحد المفكّرين الدينيين المُبرّزين، في بلد يحتلّ موقعه المتميّز في ميدان الفكر الإسلامي المعاصر، ممّا يعني أن ما يطرحه في هذا الكتاب يعكس الهواجس والإشكاليات التي تكتنف خطاب الوعي الديني في إيران اليوم.

إلى ذلك، فإن السيّد خاتمي استطاع، بأفكاره هذه، استقطاب

الناخبين في انتخابات الرئاسة الإيرانية في أيار عام ١٩٩٧، في وقت لم تتخطّ فيه الثورة ـ الزلزال في إيران عقدها الثاني، ممّا وضع المراقبين والباحثين في الشئون السياسية والاجتماعية الإيرانية أمام مفاجأة كبيرة.

من هنا تبدو أهمية الاطّلاع على أفكار ونظريات شخصيَّة تنطلق من موقع الرئاسة إلى ساحة العمل الدءوب للتَوفيق بين الدين والديمقراطية والتنمية، بل لإقامة حالة انسجام ووئام بين التديّن والحداثة.

* * *

بين دفّتي هذا الكتاب يطّلع القارئ على بعض أفكار السيّد محمّد خاتمي التي طرحها خلال زيارته إلى لبنان أواخر عام ١٩٩٦، وهي موزّعة على أربعة فصول: الأوّل بعنوان «التديّن في عالم اليوم»، وهو نصّ محاضرة ألقاها في «دار الندوة» في بيروت بدعوة من الحركة الثقافية في أنطلياس ودار الندوة؛ والثاني بعنوان «التراث، التنمية، الحداثة»، وهو أيضا نص محاضرة ألقاها في كلّية الحقوق والعلوم السياسية ـ الجامعة اللبنانية؛ أمّا الثالث فحوار أجرته معه مجلة المنطلق اللبنانية؛ في حين يستعيد الرابع وقائع حديث متلفز أعدّته وبثّته محطّة «المنار» اللبنانية.

إلى هذا، واستكمالاً لجولة الأفق التي تشكلها هذه المداخلات الأربع، ارتأينا أن نلحق بها نصَّين آخرين، (سبق نشرهما بالعربية في

جريدة الحياة اللندنية)، مدار الأوّل على موضوع العلاقة بين الحضارات، حوارا أو مواجهة؛ ومدار الثاني على ما بين «التنمية» و«الحرية» من إشكالية. وحول كلا الموضوعين يعبّر السيد خاتمي عن آرائه بما لا يقبل الالتباس: فعلى صعوبته، لا يرى مفرّاً للحضارات من الحوار؛ وبين «التنمية» و«الحرية» لا يتردد في الانحياز إلى خيار «الحريّة أوّلاً»...